ضياء الدين بن الأثير

د٠ علي محمد علي طلب

التعريف بابن الأثير : (١)

هو أبو الفتح ضياء الدين نصر الله محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني الموصلي ، المعروف بابن الأثير، والجزري نسبة إلى جزيرة ابن عمر ، وجزيرة ابن عمر يقول عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢) (بلدة فوق الموصل وأحسب أن أول من عمّرها الحسن بن عمر بن الخطاب الثعلبي ، وكان له امرأة بالجزيرة وهذه الجزيرة تحيط بها دجلة إلا من ناحية واحدة ، شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء فأحاط بها الماء من جميع نواحيها بهذا الخندق) ٠٠ وضياء الدين بن الأثير واحد من ثلاثة أبناء للأثير (٣) محمد بن محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني

---

(١) انظر في ترجمة ابن الأثير : وفيات الاعيان ٥/ ٣٩ ومابعدها ط دار الثقافة بيروت ، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٦ / ٣١ ومابعدها ط دار الكتب المصرية ، شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٥/ ١٧ ومابعدها ، والعبر للحافظ الذهبي٥/ ١٥٦ ، البلاغة تطور تاريخ للدكتور شوقي ضيف ٣٢٣ ومابعدها ط دار المعارف بالقاهرة ٠٠

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ٢/ ١٣ ط دار صادر بيروت ٠٠

(٣) انظر دائرة المعارف الاسلامية (ابن الأثير) ومقال عبد الستار فراج بمجلة العربي العدد/ ١٥ يناير ١٩٧٢ بعنوان (ابن الأثير ٠٠٠ بل ابناؤه) ٠٠

التي كان يتولي ديوان جزيرة ابن عمر لأمير الموصل قطب الدين مودود ، وكل واحد منهم لا تقل شهرته عن أخيه :

فأكبرهم المبارك بن محمد بن عبد الكريم الجزري ، ولقبه مجد الدين وكنيته أبو السعادات ، وقد تولي الخزانة لسيف الدين غازي بن مودود بن زنكي ، ثم ولاه ديوان الجزيرة واعمالها ، ومن مؤلفاته (النهاية في غريب الحديث) وهو مرجع في اللغة نقله ابن منظور في كتابه (لسان العرب) وله ايضا كتاب (المرصع) وله من الكتب المخطوطة التي لم تطبع (جامع الأصول في احاديث الرسول) وتوفي سنة ٦٠٦ هـ ..

وأوسطهم هو علي بن محمد بن عبدالكريم الجزري الشيباني ولقبه عز الدين وكنيته أبو الحسن ، وكان عالما فاضلا وإماما في حفظ الحديث ، وحافظا لتواريخ المتقدمة والمتأخرة ، وخبيرا بأنساب العرب وأيامهم ووقائعهم ، وأهم كتبه (الكامل في التاريخ) وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) واختصر كتاب الأنساب للسمعاني ، وله كتاب (الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية) ، وتوفي سنة ٦٣٠ هـ

وأصغر أبناء الأثير هو ضياء الدين محمد بن عبد الكريم الجزري الشيباني (موضوع البحث) ولقبه ضياء الدين وكنيته أبو الفتح .. وقد ترجم له ابن خلكان في (وفيات الأعيان) والحافظ الذهبي في (العبر) وابن العماد في (شذرات الذهب) وابن تغري بردي في (النجوم الزاهرة) وغيرهم ...

ولد ضياء الدين بن الأثير في جزيرة ابن عمرونشأ بهـــا وانتقل مع والده واخويه الي الموصل ، وحفظ القرآن الكريم وكثيرا من الأحاديث النبوية ، وكان اهتمامه بالأدب كبيرا ، وحفظ أشعار الفحول ، وكانت ولادته في يوم الخميس ٢٠ من شعبان سنة ٥٥ هـ ومات في شهرربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ببغداد ...

وهو الوحيد بين اخوته الذي ذكر ابن خلكان أن له ولدا نبيها له نظم ونثر حسن ، وصنف عدة تصانيف نافعة ، وأن اسمه محمـــد بن نصر الدين بن الإثير ..

وضياء الدين بن الأثير كان فيه طموح واعتزاز بنفسه ، ولـــم يكن فيه تواضع العلماء بل فيه بعض الغرور الذي يلحق بعض الأدباء هـــذا إلي ما كان فيه من الجفوة والميل الي الاساءة ، ونلحظ ذلـــك فيما كتبه ابن خلكان في (وفيات الأعيان) ..

وانتقل ضياء الدين الي الشام عام ٧ ٥ هـ[1] والتحق بخدمـــة صلاح الدين الأيوبي عن طريق القاضي الفاضل ، وكان القاضـــــي الفاضل يعطف علي الأدباء والكُتّاب ، ويجل العلماء ويقربهم، ولمـــا قدمه القاضي الفاضل إلي السلطان صلاح الدين كان السلطان إذ ذاك مشغولا بحرب الصليبيين ، فألحقه صلاح الدين بخدمة أبنه الأفضـــل وتلازمـا منذ ذلك التاريخ ولم يفترقا ....

وعندما توفيصلاح الدين سنة ٥٩ هـ وتولي بعده أبنه الأفضـــل

---

(١) انظر في ذلك : وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٩٠/٥ ومابعدهـا تحقيق د/ احسان عباس ط دار الثقافة بيروت .....

وكان شابا يملؤه الغرور والطيش واللهو ، وكان متقلبا فتـــارة يعربد ويشرب الخمر وتارة يرجع إلي الدين والتصوف ، وترك - الأمور كلها لضياء الدين بن الأثير الذي اتخذه وزيرا له ، وأســاء ضياء الدين للرعية وضج الجميع بالشكوي منه ، وانكروا سياستـــه حيث قال في أحد شعرائهم (١) :-

متي اري حرز يريكم ومالة من وزر
يقلعه الله فـــذا أو أن قلع الجزر (ي)

وتجمع الساخطون مما طردهم الأفضل من دمشق بايعاز من ضيـاء الدين في مصر ، عند العزيز عثمان وعمه العادل ، واوغروا صدريهما للإطاحـة بهما ، ودبت عقارب الفتنة واستعت شقة الخلاف ، وثـارت نار الحرب بين الأخويين عثمان والأفضل ، وزكاها العادل ليكســب من ورائهـا وليحقق أطماعه في وراثة ملك أخيه العريض ..

وحاصـر العزيز عثمان دمشق ودخلها ، وأخيرا استسلم الأفضـل وفتحت أبواب دمشق بعد أن تخلي عنه انصاره ، وأنتهي الأمر بينه وبين عمه وأخيه إلي الصلح ، وأن ينتقل من ملك دمشق والشام الـــي ولاية صغيرة في (ضرخـــد) .. ودبر حاجبه جمال الدين أمر هروب ابن الأثير ووزيره الافضل مختفيا في جملة الصناديق التي تحمل متاع الافضل ليلا (٢) ..

ويغادر ضياء الدين الأفضل بعد زوال دولته ويلجـأ الي الملـــك الظاهر صاحب حلب ، ولم يبق فيها طويلا ، وانتهي به المطاف إلـــي

(١) انظر كتاب (الروضتين) في أخبار الدولتين لابن أبي شامه ٢/١٣٠ ..
(٢) مرآة الزمان ليوسف قزاوغلي /٤٤٣ ط حيدر أباد ١٩٥٢ ..

الموصل مرة اخري ، والتحق بخدمة اميرها عزي الدين مسعود الثاني (٦٠٧ - ٦١٥ ه) ، وتنقل بين الموصل واربل وبغداد ، ثم قام علي خدمة الأتابكة بعد ذلك ....

وظل ضياء الدين طوال تسعة عشر عاما ، وهي الفترة الأخيرة من عمره مستقرا بالموصل بعد طول أسفاره شرقا وغربا شمالا وجنوبا سعيا وراء المجد والغني ، وتفرغ للأدب قراءة وكتابة ، وظل يدرس كتبه وخاصة (المثل السائر) لطلبته ، وذاع أمره بين النـــاس وتوافد عليه طلاب العلم يتزودون من فضله وأدبه ، وكذلك تولـــي تدريس كتب أخيه مجد الدين المبارك (١).

وبعد أن ترك ضياء الدين للأدب والعلم ثروة رسائله وموءلفاته وخلّد اسمه بين علماء عصره وطلاب علمه ، توفي سنة ٦٣٧ ه وقد بلغ من العمر ثمانين عاما ..

ثقافة ابن الاثير واساتذته :

لقد كانت ثقافة ابن الاثير ثقافة عربية اسلامية خالصة ، فقد تلقي العلم صغيرا في جزيرة ابن عمر ، وحفظ بعضن القرآن الكريم وأتمّه في الموصل وتلقي فقه الإمام الشافعي كأبيه وأمه ، واهتم ضياء الدين بدراسة القرآن والحديث ، بعد أن حفظ القرآن صغيرا واستوعب كثيرا من الحديث حفظا وتفسيرا ، وتتلمذ فيهما علـــى أخيه الأكبر مجد الدين المبارك بن الأثير صاحب الكتب المشهورة

(١) انظر : ضياء الدين بن الاثير د/ محمد زغلول سلام صـ ٤٤ وما بعدها ط.. دار المعارف بالقاهرة .....

في الحديث ورجاله ، وعكف علي كتب التفسير المختلفة يدرسها ويفيد منها ، واستعان بهذه الدراسات في دراساته البيانية، وفي كتابته اذ اقتبس من القرآن والحديث ما يدل علي فهمه للنصوص القرآنية والنبوية ، وقد حدثنا في كتابه (الوشي المرقوم)[1] عن اهتمامه بكتب الحديث ، وذكر في (المثل السائر) انه جمع كتابا في الأخبار النبوية يشمل ثلاثة آلاف خبر حيث يقول (وكنت جردت من الأخبار النبوية كتابا يشمل ثلاثة آلاف خبر كلها تدخل في الاستعمال ، ومازلت أواظب مطالعته مدة تزيد علي عشر سنين فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتي دار علي ناظري وخاطري ما يزيد علي خمسمائة مرة ، وصار محفوظا لا يشذ عني منه شيء)[2]

وفي علوم اللغة قرأ فيعلم النحو والبيان والأدب مجموعة كبيرة ففي اللغة قرأ لأبي علي الفارسي ، وقرأ للمبرد كتاب الكامل وكتاب الروضة ، وقرأ الخصائص لابن جني ، والأمثال للميداني وفي البلاغة والأدب قرأ كتاب (الموازنة بين أبي تمام والبحتري) للآمدي وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي وأشاد بهما في مقدمة كتاب (المثل السائر)[3] ، كما قرأ كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصفهاني ومقامات الحريري ، وفي الشعر ديوان الحماسة لأبي تمام ، واستوعب أكثره ونقل عنه واستشهد بما فيه ، كما قرأ اللزوميات لأبي العلاء المعري ، وله عليه مآخذ ، وكذلك نقائض جرير والفرزدق ودواوين كثير من الشعراء القدامي والمعاصرين له ، ووسائل مشاهير الكتاب

---

(١) الوشي المرقوم في حل المنظوم لضياء الدين بن الأثير صـ ٥ ط ثمرات الفنون ١٢٩ ٠٠ (٢) المثل السائر لابن الاثير ١٦١/١ ط نهضة مصر ٠٠ (٣) انظر مقدمة المثل السائر في أدب الكتاب والشاعر لابن الأثير صـ ٣٥ ومابعدها ط نهضة مصر بالقاهرة ٠٠

أمثال أبي هلال الصابي (١)

ولقد اهتم - علي الرغم من كثرة حفظه له - بشعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وحفظ دواوينهم كلها ، وقد كان هو كغيره من أهل زمانه يهتمون بأشعار هؤلاء بين حفظ وشرح وتقليد أو معارضة ، ويعلل ضياء الدين بن الأثير اهتمامه بشعر هؤلاء الشعراء دون غيرهم بقوله : (وقد اكتفيت في هذا بشعر أبي تمام وأبي عباده الوليد وأبي الطيب المتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لاَتُ الشعر وعُزّاه ومنَاتُه الذين ظهرت علي ايديهم حسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلي فصاحة القدماء) (٢)

اما ثقافته في مجال البيان والبلاغة والنقد بصفة خاصة ، فقد كان محصوله في هذا المجال وافرا، فلم يترك كتابا في هذه الفنون إلا قرأه ، واستظهر ما فيه ، فقرأ ماكتبه الرّماني والآمدي والجاحظ وقدامة بن جعفر وأبو هلال العسكري والغانمي وابن سنان الخفاجي وغيرهم ممن كان له رأي يشار إليه وقول تعقد الحناجر عليه

كما قرأ لابن المعتز ونقل عن كتابه (البديع) والقاضي الجرجاني ونقل عن كتابه (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ..

ومن شيوخ ابن الأثير غير ما قدمنا بعضن شيوخ الموصل أمثال الفقيه محمد بن يونس الموصلي وابن الدهان سعيد بن المبارك وغيرهما .. (٣)

---

(١) انظر : ضياء الدين لابن الأثير صـ ٤٧ ..
(٢) انظر المثل السائر ٢/ ٣٦ ..
(٣) انظر : ضياء الدين الأثير صـ ٤ نقلا عن مقدمة الجامع الكبير لابن الأثير مخطوط بمعهد المخطوطات العربية .....

ونستطيع بعد ذلك أن نحدد الموء ثرات العامة والخاصة في ابن الاثير وفي تكوين ذوقه الفني وشخصيته الأدبية :-

١ - البيئة العامة التي كانت مزدهرة بالعلم والعلماء والدرس والتحصيل في مدينة (الموصل) الحافلة بكثير من رجال العلم في هذا العصر ..

٢ - ثقافته العربية الخالصة التي تتمثل في القرآن الكريم والحديث وكتب اللغة والأدب ، والشعر التي نهل منها ، واستوعب الكثير من معينها ، وجب إليه الإطلاع والتحصيل وقطف ثمراتها الدانية الشهية ....

٣ - بيئته الخاصة التي تتمثل في والده وأخوته ، فهم علماء لهم شهرة واسعة في مجال العلم والمعرفة ، وكل واحد منهم يفوق الآخر علما وفضلا وخلودا علي مر الدهور والأعوام ..

٤ - روح التنافس التي أوجدتها الحركة العلمية والأدبية في هذا العصر ، حيث ألفت الكتب الكثيرة ، ونهض كل من الشعر والنثر وواكب الأحداث الحربية والسياسية واشتهرهذا العصر بالمهارة الفنية والصنعة والبراعة التي غلبت إلي حد كبير علي العبقرية والابتكار ..

٥ - عمله بكتابة الرسائل منذ شبابه البكر فقد كتب لصلاح الدين وابنه الأفضل وأصحاب الموصل ، وكل هذا صقل موهبته الفنية وزوقه الأدبي ....

وقد خلف ابن الأثير ثروة هائلة من كتب الأدب والبلاغة ، منها

كتب المختارات كمختارات الحديث ، ومختصر أمثال الميداني ومختار شعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ، (وموء نسي الوحدة) وهو مخطوط بدار الكتب ، وله مجموع في معاني الشعر بعنوان (عمود المعاني) ، وله كتابه المشهور (المثل السائر) ، و(الاستدراك علي المآخذ الكندية) ، (الوشي المرقوم في حل المنظوم) ورسائل ضياء الدين ابن الأثير ، وهي مطبوعة والجامع الكبير وهو مخطوط وغير ذلك من الكتب المفيدة النافعة ....

كتاب المثل السائر

موضوع الكتاب ومادته :

هذا الكتاب من أشهر كتبه في البلاغة والنقد ، وهو أجلها أثرا ونفعا ، وقد ألفه في العشرين سنة الأخيرة من عمره وظل يدرسه في الموصل .. ومعلوم لنا أنه استقر في آخر حياته بالموصل قرابة تسعة عشر عاما أخذ يؤلف فيها ، ويدوس العلوم لطلابه كما وضحنا ذلك من قبل ..

ويقوم موضوع الكتاب علي أساس علم البلاغة بكل أبوابه ، وما يتصل منها بالنثر أو الشعر جميعا بالاضافة إلي موضوع من النصائح والإرشادات الموجهة الي الشعراء والكُتّاب في أصول الصناعة ..

ولقد بني كتابه علي مقدمه وقسمين كبيرين : أحدهما خاص بالألفاظ أو الصنعة اللفظية والثاني بالصنعة المعنوية ..

وقد تناول ضياء الدين بن الأثير في المقدمة أصول صناعتي الشعر والنثر واهتم بالكتابة الأدبية أكثر من اهتمامه بالشعر ونصح الكُتّاب نصائح لإجادة الصنعة فيها ، وأول ما ينصح به الكاتب أن يكون له طبع وميل للكتابة ، وأن يتعلم العربية والنحو وأصول اللغة ، ويحفظ أمثال العرب وأشعارهم ، القديمة والمحدثة ، ويحفظ القرآن الكريم ويتدرب علي استعماله والحديث الشريف والأخبار النبوية ومعرفة الأحكام السلطانية والتاريخ وأيام العرب وأخبارهم والاطلاع علي تأليفات من تقدم من المنظوم والمنثور ، ومعرفة العروض والقوافي (١)

ثم يتحدث في المقالة اللفظية علي خصائص الألفاظ مفردة ، ويجمعها في سهولة النطق والبعد عن الغرابة ، والحوشية والابتذال مع حسن وقعها في السمع ، وأن يقبلها الذوق ولا ينفر منها الطبع ، وتكون جارية علي قواعد اللغة وأصولها في البناء والاعراب(٢)..

وأما خصائص اللفظ المركب فأكثرها شبيه باللفظ المفرد وفصاحة المركب متصلة كذلك بحسن التأليف ، وهو أن لا ينقل علي اللسان النطق به ، فيصير متعسرا ، في النطق أو ثقيلا علي السمع لتعاقب الأفعال مثلا ، وأن يكون في تأليفه قريبا من المألوف غير شاذ كالتراكيب في الضمائر ، وتعاقب حروف الجر وما إليها ..

---

(١) انظر المثل السائر جـ صـ ٤٣ ومابعدها تحقيق د/ احمد الحوفي ، د/ بدوي طبانه طـ نهضة مصر بالقاهرة ..

(٢) انظر المثل السائر جـ ١ صـ ٢١٠ ومابعدها ..

ويجعل الكاتب من أبواب الألفاظ المؤلفة (مما اعتاده الناس من أبواب البديع والبلاغة) السجع المنثور والتصريح في المنظوم والتجنيس والترصيع ، ولزوم مالا يلزم والموازنة في المنثور (١)..

والقسم الثاني الخاص بالمعاني يتحدث فيه عن أبواب المعاني المعروفة في علم البلاغة ، أو معاني القول أي المعاني الإجمالية والجزئية كمعاني الغزل ، ومعاني المدح وما إليها ، والمصطلح البلاغي الذي يندرج تحته أبواب التقديم والتأخير والالتفات والإيجاز والإطناب والاستعارة والتشبيه والكناية وما إليها ...

ثم يختتم الكتاب بالكلام في السرقات الشعرية باعتبار أن - السرقات ضرب من المآخذ المعنوية وتصرف الشعراء في المعاني المختلفة والمشتركة (٢)

ومما لاشك فيه أن كتاب (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) عظيم في فنه دال علي سعة اطلاع صاحبه وحسن فهمه، الرغم مما أخذه عليه ابن أبي الحديد في كتابه (الفلك الدائر علي المثل السائر) وهي نقدات تتعلق بضياء الدين نفسه أكثر مما يتعلق بكتابه ، فقد أخذ عليه غضّه من شأن بعض العلماء وطعنه عليهم ، وإفراطه في الإعجاب بنفسه والتمسك برأيه والتفريط لمعرفته وصناعته ، وعتابه المستمر علي دهره إذ لم يعطه علي قدر استحقاقه (٣)..

---

(١) انظر المثل السائر ١/٢٧٠ ومابعدها ط نهضة مصر ..
(٢) انظر المثل السائر ٣/ ٢١ ومابعدها ..
(٣) انظر: الفلك الدائر علي المثل السائر لابن أبي الحديد ط.. نهضة مصر ومقال الأستاذ عبدالستار فراج بمجلة العربي العدد

أسلوب الكاتب وطريقته :

لقد اتصل ضياء الدين بالقاضي الفاضل حين قدمه إلي السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وألحقه بخدمة ابنه الأفضل ، وعمل زمنا طويلا بكتابة الرسائل منذ فجر شبابه ، ومن هنا فنحن نلاحظ أنه قد تأثر بطريقة القاضي الفاضل في كثير من خصائص فن الكتابة ، وتعلم أن القاضي الفاضل استغل التشبيه والاستعارة أتم استغلال ، كما استغل التضمين والاقتباس من القرآن الكريم والشعر القديم أجمل استخدام ، كذلك كان يتبع التورية في كتابته حتي عدت من دعائمها ، وكان الفاضل نفورا من السجع المتكلف في معظم كتابته .....

ونحن نري أن ضياء الدين يميل الي طريقة القاضي الفاضل ، فكان يميل احيانا الي السجع غير المتكلف ، ولم يكن يميل في سجعه إلي الفقرات القصار ، ولم يكن يستخدم السجع الطويل الفقرات بل كان يراوح بين فقراته طولا وقصرا ، وكان يميل إلي الاقتباس والتضمين والاستعانة بالألفاظ والمعاني أو المجاراة في النسق وطريقة التأليف وما إلي ذلك ..

وكان يعدّ هذا أحسن وأدعي إلي نفس الكاتب ، وأتم لاظهار معانيه واستيعاب ألفاظه ، وخير مثال لاسلوبه المرسل هو كتابه (المثل السائر) (١)

وتختلف عند ضياء الدين العبارة الادبية أو الفنية عن العبارة العلمية أو المنطقية في أن الثانية تقصد إلي المعني مباشرة دون

(١) انظر : ضياى الدين بن الاثير صـ ٥٧ ..

زيادة ونقص ، بخلاف الأولي التي تحتمل أشياء كثيرة ، وقديما حاول اللغويون والمناطقة وبعض النقاد قياس الشعر بالمنطق ومقاييسه وحدوده ، فثار عليهم البحتري حيث يقول :-

كلفتمونا حدود منطقكم والشعر يغني عن صدقه كذبه

بمعني أن المنطق يبحث عن الصدق ، أي مطابقة الكلام لمقتضي الحال وأما الشعر فيحتمل كثيرا من المجاز والتأويل ..

وقد عمد الكاتب في كتابته إلي عدم الاكتفاء بمخاطبة العقل بل إلي ضرورة التأثير علي المشاعر والأحاسيس وإثارة الانفعالات ، المختلفة عن طريق التخييل أو مخاطبة الحواس والإنهام ....

ولقد ضرب ضياء الدين في كتابه (المثل السائر) بسهم وافر في فن الموازنات التي تعتمد علي ذوق فني أصيل مصقول ، وتعتمد علي فهم سليم لأساليب الشعر ومعانيه وتراكيبه ولغته ، وهو فن دقيق لا يخوض في غماره إلا مَن أعطوا سلامة الذوق ودقة الحس وجودة الفهم وموهبة النقد الأدبي الصحيح ..

وتعرض ضياء الدين في كتابه (المثل السائر) لنقد بعض الكُتّاب والشعراء واكثر من تعرض لهم من سابقيه أبو هلال الصابي فلم تعجبه طريقته في الكتابه وخاصة في تكرار معاني عباراته وتناسب فقراته ، ولم يسلم أحد من نقد ضياء الدين ابن الأثير حتي القاضي الفاضل نفسه ، فقد حاول غمزه والإقلال من شأن كتابته وقد أخذ عليه مرة التقصير في موضوع رسائله ، ومرة أخري عدم مناسبتها

للمقام ومرة ثالثة المبالغة وعدم التناسب في الصور البيانية ، بين تشبيه واستعارة ، ولكن موقفه من القاضي الفاضل مشوب بالهوي لما بينهما من التنافس ولتقدم القاضي عليه في هذا العصر ....

وكان ضياء الدين بن الأثير يعجب كثيرا بالشاعرين أبي تمام والمتنبي لأنهما جمعا بين الفن والعقل ، أو بين الصنعة والطبع ، و - وثالث من يعجب بهم من الشعراء البحتري .. أما المحدثون فيعجب بهم أحيانا ويؤاخذهم علي بعض ما سقطوا فيه أحيانا ....

وكان من صفات ضياء الدين ألا يتعصب (كغيره من العلماء واكثر النقاد) للقدماء لتقدمهم ، بل يحكم علي الشعر سواء القديم أو المحدث بماله وما عليه ، وإن كان أكثر ميلا إلي معاني المحدثين وجمال صنعتهم (١) ..

ومن هذا كله ندرك ان ابن الأثير كانت شخصيته أدبية ذواقة ، إذ تعمق في فهم أساليب الشعر والنثر وقرأ كثيرا واستظهر من الألوان الأدبية ، ما جعله مسلحا لخوض غمار النقد الأدبي من أوسع أبوابه ، فكتب لنفسه صفحات ناصعة من المجد والخلود ..

الجانب النقدي في كتاب المثل السائر :-

لقد كان ابن الأثير ناقد ذواقة لا يقف أمام القواعد الجافة والنظريات الجامدة والمقاييس الجمالية التي لا تفرق بين الجمال والجلال ، أو بين الحلاوة والملاحة كما قيل ، وانما كان ذا ذوق

---

(١) انظر المرجع السابق صـ ٧٠

فني مرهف يستطيع به أن يفرق بين هندسة الشكل وانسجام التراكيب ، وبين نبض الشكل وحيويته ..

والذوق عند ابن الأثير ذوق فني يعتمد أولا علي الدراسة المتأنية ، والعكوف علي ما كتبه السابقون ، ثم التمرن الدائم والدءوب علي استخدام ذوقه في كل ما يعن له من مشكلات أو يعرض له من نصوص وأخبار (١)..

ويذكر الدكتور بدوي طبانه أن المثل السائر من كتب النقد التي لم تعمد إلي سرد الأفكار والنظريات ، وانما كان نقده عمليا وتطبيقيا ، والكتاب يفيض بكثير من الآراء الحرة في الأدب والأدباء علي هذا النحو من الدرس والتحليل ، ولم يسلم من نقد ابن الاثير كثير من فحول الشعراء الذين يعرفهم تاريخ الأدب العربي بالاجلال والإكبار كامريء القيس وتأبط شرا والفرزدق وأبي نواس وأبي الطيب المتنبي وغيرهم من كبار شعراء العربية ..... وفي هذا النقد يجد الدارس كثيرا من مظاهر التمسك بالموضوعية ، وفي كثير من الأحيان لا يكتفي ابن الأثير بحكم المعرفة ، ويشجع علي تربية هذا الذوق بالاكثار من القراءة ومداومة الاطلاع (٢)..

ومن المواقف النقدية لضياء الدين بن الإثير ما ذكره في قضية اللفظ والمعني) ، فهو يناصر جانب اللفظ علي جانب المعني ويعلن

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور عبد المنعم يونس في مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية (بعنوان : ابن الاثير وجهوده في الدراسات النقدية) العدد الثالث ١٩٨٣ ..

(٢) انظر ماكتبه الدكترو/بدوي طبانه في مجلة تراث الانسانية المجلد الثاني العدد الثاني بعنوان (المثل السائر في ادب

في صراحة أن العثور علي المعاني الشريفة أيسر من العثور علي الألفاظ الجليلة ، وينصن ضياء الدين بن الأثير علي أن المعاني لها جلالها وخطرها ، ولكنها لا تقف مساوية للألفاظ ، ولا يمكن ان تكون قرينة لها ، لأن المعاني في نظره قد حصل عليها أناس لا يستطيعون إلباسها اللباس الملائم لها من اختيار الألفاظ واستقامة التعبير(١)

ومن الملامح الفنية في نقد ابن الأثير رأيه في (السجع) فهو لا يقتصر في ذلك علي النظريات المتعارفة في هذا الباب ويخالف كثيرا من العلماء الذين تورعوا في استخدام كلمة (السجع) في القرآن الكريم ورأوا ان يستعملوا اصطلاح (الفواصل) حتي لا يشبه كلام الله بكلام البشر ، ولا يفوت ابن الاثير استعمال ذكائه في الرد علي العلماء الذين أنكروا علي من يصف بعض فواصل القرآن بالسجع فيقول : (فإن قيل ان النبي صلي الله عليه وسلم قال لبعضهم منكرا عليه ، وقد كلمه بكلام مسجوع : أسجعنا كسجع الكهان ؟ ، ولولا أن السجع مكروه لما انكره النبي صلي الله عليه وسلم .... فالجواب عن ذلك أنا نقول : لو كره النبي صلي الله عليه وسلم السجع مطلقا لقال : أسجعاً ؟ ثم سكت ، وكان المعني يدل علي إنكار هذا الفعل لم كان ؟ فلما قال (أسجعاً كسجع الكهان ؟ (صار المعني مطلقا علي أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان علي هذا الوجه ؟ ..

فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهان لا غيره

---

(١) المثل السائر ١/ ١٢٣

وأنه لم يذم السجع علي الاطلاق (١)..

ومن القضايا النقدية التي تناولها ابن الأثير في (المثل السائر بدقة متناهية قضية (السرقات الشعرية) ، وهي من البحوث الفنية المفيدة التي ختم بها ابن الأثير كتابه ، وتجعل ابن الأثير ناقدا له دوره الفعّال في مجال النقد الأدبي..

ولقد كان ابن الأثير دقيقا في طرحه لهذه القضية التي عالجها غيره من النقاد السابقين كالقاضي الجرجاني في (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، ابن رشيق في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) وغيرهما..

وقد رد ابن الأثير في هذه القضية علي مَنْ يدعي أن المعاني المبتكرة قد انتهت وأن الناس جميعا ما هم الا مكررون لما قيل آخذون ما سبقهم إليه أسلافهم وهم بذلك يقولون كما قال الشاعر :

(ما أرانا نقولا إلا معادا من قولنا مكرورا)

ثم يقول ابن الاثير : والصحيح أن باب الابتداع للمعاني مفتوح الي يوم القيامة ، ومَن الذين يحجر علي الخواطر وهي قاذفة بما لا نهاية له ؟ أن من المعاني ما يتساوي الشعراء فيه ، ولا يطلق عليه اسم الابتداع لاول قبل آخره ، لان الخواطر تأتي به من غير حاجة إلي اتباع الآخر الأول (٢)

---

(١) المثل السائر ١/ ٢٧٣

(٢) المثل السائر لابن الأثير ٢١٩/٣

وقد تأثر ابن الإثير في طرحه لهذه القضية الهامة بالقاضي الجرجاني وابن رشيق اللذين قررا أن المعاني الشائعة والتعبيرات المألوفة لا سرقة فيهما ، وكأنها أصبحت قوالب عامة يمكن للجميع السير علي نسقها (١)..

وإذا كان ابن الأثير قد سلك مسلك سابقيه في قضية السرقات الشعرية ، فإنه أتي برائع القول ، وجميل الحديث ، وكان له فضل الجمع والترتيب وحسن التقسيم ومن ثَمّ يري الدكتور بدوي طبانة أن بحث ابن الاثير في السرقات الشعرية من امتع مباحث المثل السائر وأوفاها ، فقد درسها دراسة منتظمة ، وقسم السرقات الشعرية تقسيما يدل علي عقلية واعية ، واستدل لكل قسم منها بالامثلة الكافية الموضحة التي تدل علي سعة معرفته وكثرة محفوظة ، وقدرته علي لمح الإفادة ، وإن دقت علي النظر (٢)..

ولابن الأثير آراء موضوعية في تفضيل الشعراء ، فله آراءه السديدة في ابن تمام وأبن الطيب المتنبي والبحتري تبني علي الفهم الدقيق لأشعارهم ، وعلي ذوقه الأدبي الخالص ، داعما آراءه بالتعليل والتماس الحجة التي يستطيع بها اقناع القاريء بما يري ..

---

(١) انظر في ذلك : الوساطة للقاضي الجرجاني صـ ٣ ١ ط الحلبي ، العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق ٢/ ٩٥ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط حجازي سنة ١٩٣٤ م ..

(٢) انظر مقال الدكتور بدوي طبانه في مجلة تراث الانسانية ...

واذا كان ابن الأثير قد وافق بعض النقاد في شعر المحدثين الثلاثة فإنه أتـي برأي جـديد خالف فيه كثيرا من النقاد في شعـر امريء القيس وزهير والنابغة والأعشي ، حيث فضّل عليهم شعـر الفرزدق وجرير والأخطل ، لأنهم أجادوا في كـل ما أتوا به مـن المعاني المختلفة ، وأشعر منهم في رأي ابن الأثير الثلاثة المتأخرون وهم : أبو تمام وأبو عبادة البحتري وأبو الطيب المتنبي ، فـإن هوءلاء الثلاثة في رأيـه لا يدانيهم مدان في طبقة الشعراء .. (١)

وله آراء كثيرة في مجال النقد الأدبي ، معروفة في كتابـه (المثل السائر) وغيره ، ويكفي ما أوردنا من نماذج لهذا النقـد الهادف الذي عرف بـه ابن الأثير فجزاه الله عن ما قدم للغتـه وأمته خير الجزاء ....

---

(١) انظر المثل السائر ٣/ ٢٧٤ ومابعدهـا .....

نماذج مختارة من كتاب المثل السائر

(١) من جوامع الكلم (١)

(قال النبي صلي الله عليه وسلم (أوتيت جوامع الكلم) فالكلم جمع كلمة ، والجوامع جمع جامعة اسم فاعله من جَمَعت فهي جامعة كما يقال في المذكر : جَمَع فهو جامع ، والمراد بذلك أنه صلي الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني .. وهو عندي ينقسم قسمين : القسم الأول منهما هو ما استخرجته ونبهت عليه ، ولم يكن لأحد فيه قول سابق ، وهو أن لنا ألفاظا تتضمن من المعني مالاتتضمن اخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها ، فمن ذلك ما يأتي عليحكم المجاز ، ، ومنه ما يأتي علي الحقيقة ..

أما ما يأتي علي حكم المجاز فقوله صلي الله عليه وسلم يوم حنين (الآن حمي الوطيس) وهذا لم يسمع من أحد قبل رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا (استعرت الحرب) لما كان مؤديا من المعني ما يؤديه (حمي الوطيس) وافرق بينهما أن الوطيس هو التنور ، وهو موطن الوقود ومجتمع النار ، وذلك يخيل إلي السامع أن هناك صورة شبيهة بصورته في حميها وتوقدها وهذا لا يوجد في قولنا (استعرت الحرب) أو ما جري مجراه ..

وكذلك قال صلي الله عليه وسلم (بعثت في نَفَس الساعة) - وذلك أن النَفَس يدل علي أن الساعة منه بحيث يحسّ بها كما يحسّ

---

(١) المثل السائر ١/ ٩٦ ومابعدها .....

الإنسان بنَفَس مَن هو إلي جانبه .. وقد قال صلي الله عليه وسلم في موضع آخر (بعثت أناوالساعة كهاتين) وجمع بين أصبعيه السبابة والوسطي .. ولو قال : بعثت علي قرب من الساعة أو والساعة قريبة مني ، لما دل ذلك علي ما دل عليه نَفَس الساعة .. وهذا لا يحتاج الي الإطالة في بيانه ، لأنه بيّن واضح ..

ولقد ورد شيء من ذلك في أقوال الشعراء والمفلقين ، ولقد تصفحت الأشعار قديمها وحديثها ، وحفظت ما حفظت منها ،وكنت إذا مررت بنظري في ديوان من الدواوين ، ويلوح لي فيه مثل هذه الألفاظ أجد لها نشوة كنشوة الشعر وطربا كطرب الألحان ، فما جاء من ذلك قول أبي تمام :-

كم صارِم عضِب أناف علي فتي منهم لأعباء الوغي حَمّال
سبق المشيبُ اليه حتي ابتزّه وطَنَ النُهي من مفرق وقذالِ(١)

فقوله (وطن النُهي) من الكلمات الجامعة ، وهي عبارة عن الرأس ولا يجاء بمثلها في معناها مما يسد مسدها .. وكذلك ورد قول البحتري :-

قلبٌ يُطل علي أفكاره ويد تُمضي الأمور ونفسٌ لهوها التعب

فقوله (قلب يطلعلي أفكاره) من الكلمات الجوامع ، ومرادهه - بذلك أن قلبه لا تملوه الأفكار ، ولا تحيط به ، وإنما هو عالٍ عليها ويصف بذلك عدم احتفاله بالقُوادح وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكارا تستغرق القلوب ...

(١) العضب : السيف القاطع .. الوغي : الحرب .. ابتزّه الشيء : سلبه إياه المفرق : وسط الرأس .. القذال : مؤخرة الرأس ..

وهذه عبارة عجيبة لا يوءتي بمثلها مما يسد مسدها ....

واما ما يأتي علي حكم الحقيقة فكقول ابن الرومي :-

سقي الله أوطاراً لنا ومآربا تقطّع من أقرانها ما تقطعا (١)

لبالٍ تنسّيني الليالي حسابَها بهلنية أقضي بها الحول أجمعا (٢)

سوي غرةٍ لا أعرف اليوم باسمه وأعمل فيه اللهوَ مرأي ومسمعا

فقوله (لا اعرف اليوم باسمه) من الكلمات الجامعة .. أي أنيقد شُغلت باللذات عن معرفة الليالي والأيام .. ولو وصف اشتغاله باللذات مهما وصف لم يأت بمثل قوله (لا أعرف اليوم باسمه) ..

واما القسم الثاني من جوامع الكلم ، فالمراد به الإيجاز الذي يدل به بالإلفاظ القليلة علي المعاني الكثيرة .. أي أن ألفاظه صلوات الله عليه جامعه للمعاني المقصورة علي ايجازها واختصارها وجلّ كلامه جارٍ هذا المجري ، فلا يحتاج الي ضرب الأمثله به ..

(٢) تحليل بعض آيات القرآن

(التخلص) (١)

يقول ابن الأثير وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من ذلك كالخروج من الوعظ والتذكير بالإنذار والبشارة بالجنة إلي أمرونهي ووعد ووعيد ، ومن حكم الي متشابه ، ومن صفة لنبي مرسل وملك منزل

(١) الوطرة : الحاجة .. القرن : الحبل يقرن به ..

(٢) البهلنية : سعة العيش ..

(٣) المثل السائر ٢/ ١٢ ومابعدها ط نهضة مصر ..

إلي ذم شيطان مريد وجبار عنيد ، بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها برقاب بعض ، فلما جاء من التخلص في القرآن الكريم قوله تعالي : (١)

(واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون.. قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين .. قال هل يسمعونكم إذ تدعون .. أو ينفعونكم أو يضرون .. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون .. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون .. أنتم وآباؤكم الأقدمون .. فإنهم عدوٌ لي الا ربَّ العالمين الذي خلقني فهو يهدين .. والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضتُ فهو يشفين .. والذي يُميتني ثم يحيين .. والذي أطمعُ أن يغفر لي خطيئتي يوَ الدين .. رب هب لي حُكماً وألحقني بالصالحين .. وإجعل لي لسانَ صدق في الآخرين .. وإجعلني من ورثة جَنّة النعيم .. وأغفر لأبي إنه كان من الضالين .. ولا تُخزني يوم يُبعثون .. يوم لا ينفع مالُ ولا بنون .. الا مَن أتي الله بقلب سليم وازلفت الجنةُ للمتقين .. وبرزت الجحيمُ للغاوين .. وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون .. من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون .. فكُبكِبوا فيها هم والغاوون .. وجنودُ أبليسَ أجمعون .. قالوا وهم فيها يختصمون تالله إن كنا لفي ضلال مبين .. إذ نُسويكم برب العالمين .. وما أضلنا إلا المجرمون .. فما لنا من شافعين .. ولاصديقٍ حميم .. فلو أن لنا كَرّةً فنكون من المؤمنين) ....

---

(١) شورة الشعراء من الآية ٦٩ إلي الآية ١٠٢ ..

هذا كلام يسكر العقول ويسحر الألباب ، وفيه كفاية لطالب البلاغة ، فإنه متي أنعم فيه نظره ، وتدبر أثناءه ومطاوي حكمته علم أن في ذلك غني عن تصفح الكتب المؤلفة في هذا الفن ، ألا تري ما أحسن مارتب إبراهيم عليه السلام مع المشركين حين سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا سؤال مستفهم ، ثم أنحي علي آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، وعلي تقليد آبائهم الأقدمين فكسره وإخرجه من أن يكون شبهه فضلا عن أن يكون حجة ، ثم أراد الخروج عن ذلك إلي ذكر الإله الذي لا تجب العبادة الا له ، ولا ينبغي الرجوع والإنابة إلا اليه فصور المسألة في نفسه دونهم بقوله (فإنهم عدو لي) علي معني أني فكرت في أمري ، فرأيت عبادتي لها عبادة للعدو وهو الشيطان فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله في يده ، وأراهم بذلك أنها نصيحة ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا ما نصحنا ابراهيم بما نصح به نفسه ، فيكون ذلك أدعي لهم إلي القبول لقوله ، وأبعث علي الاستماع منه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم ، لم يكن بتلك المنابة فتخلص عند تصوره المسألة في نفسه إلي ذكر الله تعالي ، فأجري عليه تلك الصفات العظام من تفخيم شأنه ، وتعديد نعمه من لدن خلقه ، وإنشائه إلي حين وفاته ما يرجي في الآخرة من رحمته ليعلم من ذلك أن مَن هذه صفاته حقيق بالعبادة وأوجب علي الخلق الخضوع والاستكانة لعظمته ، ثم خرج من ذلك إلي ما يلائمه ويناسبه ، فدعا الله بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهال الأوابين ، لأن الطالب

من مولاه ، إذا قدم قبل سؤاله وتضرعه الاعتراف بالنعمة كان ذلك أسرع للإجابة وأنجح لحصول الطِلْبة ، ثم أدرج في ضمن دعائه ذكر البعث ويوم القيامة ، ومجاراة الله تعالي مَن آمن واتقاه بالجنة ومَن ضلّ عن عبادته بالنار ، فجمع بين الترغيب في طاعته والترهيب من معصيته ، ثم سأل المشركين عما كانوا يعبدون سؤالا ثانيا عند معانية الجزاء ، وهو سؤال موبخ لهم مستهزيء بهم ، وذكر ما يدفعون إليه من ذلك من الندم والحسرة علي ماكانوا فيه من الضلال ، وتمني العودة ليؤمنوا .....

فانظر أيها المتأمل إلي هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه برقاب بعض ، مع احتوائه ه علي ضروب من المعاني ، فيخلص من كل واحد منها إلي الآخر بلطيفة ملائمة حتي كأنه أفرغ في قالب واحد ، فخرج من ذكر الأصنام ، وتنفير أبيه وقومه عن عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع إلي ذكر الله تعالي ، فوصفه بصفات الألوهية ، فعظم شأنه وعدد نعمه ليعلم ذلك أن العبادة لا تصح إلا له ، ثم خرج من هذا إلي دعائه إياه وخضوعه له ، ثم خرج منه إلي ذكر يوم القيامه وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة المودعة في اثناء هذا الكلام .. وفي القرآن مواضع كثيرة من هذه التخلصات ...

(٣) علاقة اللفظ بالمعني (١)

يقول ابن الإثير (إعلم أن العرب كما كانت تتغني بالألفاظ

(١) المثل السائر ٢/ ٦٥ ومابعدها .....

فتصلحها وتهذبها ، فإن المعاني أقوي عندها وأكرم عليها ، وأشرف قدرا في نفوسها ، فأول ذلك عنايتها بألفاظها لانها لما كانت عنوان معانيها وطريقها إلي إظهار أغراضها أصلحوها وزينوها وبالغوا في تحسينها ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة علي القصد .. ألا تري أن الكلام إذا كان مسجوعا لذ لسامعه محفظه ، وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به إنسه في حالة السجع ، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها ورقعوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بألفاظ فقط ، بل هي خدمة منهم للمعاني ، ونظير ذلك إبراز سورة الحسناء في الحلل الموشية والأثواب المحبّرة ، فإنا قد نجد من المعاني الفاخرة ما يشوه من حسنه بذاذة لفظه (١) ، وسوء العبارة عنه) .....

رحم الله ابن الاثير ـ الأديب الناقد ـ وجزاه عن اللغة العربية وأبنائها والمهتمين بها خير الجزاء ،،،

دكتور/ علي محمد علي طلب
الأستاذ المساعد بقسم الإدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط

---

(١) بذاذة الشيء : رثاثته وسوء حاله